المحاضرة السادسة: الحكاية على لسان الحيوان (كليلة ودمنة لابن المقفع)

السرديات العربية القصيرة:

تمهيد:

يقول الدكتور سامي يوسف أبو زيد: " للعرب تراث قصصي ضخم تجلى في حكايات سجلت وقائعهم الحربية منذ أقدم العصور، وروت كثيرا من أحاديث الهوى وأخبار العشاق، فضلا عن ورود القصص في القرآن الكريم "[1]. وقد كانت الحكاية على ألسنة الحيوانات واحدة من أشكال السرديات القصيرة المترجمة إلى العربية .

عوامل نشأة القصة في الأدب العربي القديم:

يقول الدكتور سامي يوسف أبو زيد: " تعد القصة من أكثر الفنون الأدبية انتشاراً لما فيها من إثارة وتجديد، ولأن الإنسان مفطور بطبعه على تشكيل عالم جديد يحلم به ويصبو إليه، وكذلك كان الناس يسمرون في مجالسهم مستانسين بسماع أخبار أبطالهم وعُشاقهم"[2]. أما عوامل نشوء هذا الفن في أدبنا القديمK فهي:

1- **عوامل نفسية:** ففي القصة يجد الإنسان حاجة نفسية في شخصيات يرى فيها نفسه، ويتعاطف معها، حزيناً حيناً، وسعيداً حيناً آخر. وقد تكون القصة بما فيها من بطولات تعويضاً عن واقع سيئ.

2- **عوامل اجتماعية:** وفيها يجد الإنسان العادات والتقاليد الاجتماعية المتوارثة تتجلى في الشجاعة والكرم والنجدة والمروءة.

3- **عوامل عقلية فكرية:** تبدو في القصص الفلسفية التي يعرض الكاتب من خلالها قضية فكرية في أسلوب قصصي.

4- **عوامل تربوية:** وذلك حين يتخذ الكاتب القصصي هذا الفن وسيلة للإصلاح وتهذيب النفوس ويقودنا الحديث عن عوامل نشأة القصة في الأدب العربي إلى الحديث عن أنواعها.

أنواع القصة في الأدب العربي القديم:

1- **القصص الإخبارية (النوادر):** وهي نوادر وحكايات وردت في كتب الأدب العربي مثل كتاب الأغاني للأصفهاني. وجمع القاضي التنوخي (384هـ) لوناً من القصص الإخبارية في كتابه: (الفرج بعد الشدة).

2- **القصص الشعبية:** وهي ملاحم وسير شعبية تدور حول البطولات، وقد دوّنت إرضاءً لعامة الناس مثل سيرة عنترة وسيرة بني هلال، وقد غلب عليها الأسلوب الركيك.

---

[1]- سامي يوسف أبو زيد: الأدب العباسي النثر، ص 197.

[2]- سامي يوسف أبو زيد: الأدب العباسي النثر، ص 198.

3- **القصص الدينية:** وهي قصص الأنبياء والرسل والصالحين، استوحاها الكتاب مما ورد في القرآن الكريم، ومنها (العرائس للثعالبي).

4- **القصص الفلسفية:** وتدور حول مشكلات فلسفية، على نحو ما نرى في رسالة (حي بن يقظان لابن سينا)، و(رسالة الغفران لأبي العلاء المعري).

5- **القصص اللغوية:** وهي قصص ترمي إلى غاية تعليمية، وتُحشد فيها الألفاظ الغريبة وأساليب البيان والبديع وأهمها مقامات بديع الزمان الهمذاني (398) هـ، ومقامات الحريري (516 هـ).

6- **القصص الرمزية:** وهي حكايات وردت على السنة الحيوانات والطيور تتمثل في حكايات كليلة ودمنة الذي نقله ابن المقفع من الفارسية إلى العربية. وما كتبه سهل بن هارون) – 215 هـ) على مثال هذا الكتاب مثل (ثعلة وعُفرة) و(النمر والثعلب).

وقد تنوعت مصادر هذه القصص، ما بين أصيل ومترجم، كما تنوعت في طولها، وقصرها، وفي تنوع أساليبها وغاياتها.

قصص الحيوان الرمزية:

اسم كتاب (كليلة ودمنة):

فيما يخص عنوان الكتاب وتسميته، يقول حنا الفاخوري:" أما اسم الكتاب فهو مستقى من البابين الأول والثاني من أبوابه حيث يدور القصص حول اثنين من بنات آوى اسم الواحد كليلة واسم الآخر دمنة ؛ والبابان هما باب الأسد والثور وباب الفحص عن أمر دمنة .

3 – كليلة ودمنة: لقي كتاب" كليلة ودمنة"، منذ تأليفه، وترجمته من طرف عبد الله بن المقفع عناية كبيرة من النقاد قديما وحديثا؛ تكلموا على حكاياته وأصله ومضامينه وغير ذلك. ومن الدارسين المعاصرين نجد حنا الفاخوري، حيث تطرق للكتاب (كليلة ودمنة) بالدراسة والنقد، وقدم توصيفا يمكن أيراده فيما يلي:

أ – حكمة في ثوب خرافة:

يقول حنا الفاخوري في دراسته للأجناس النثرية في العصر العباسي:" كتاب (كليلة ودمنة)، ينطوي على حكايات وأقاصيص خرافية على ألسنة البهائم والطّير. وهذه البهائم والطير تمثل الحياة البشرية في نواحيها المختلفة ؛ وفيها من النزعات والأهواء والتيارات الفكرية ما نجده بين البشر في مختلف تلاوينه ومنعرجاته؛ وفيها أرباب الجدل والفقه والمنطق وعلم الاجتماع والسياسة ؛ وفيها الأخيار والأشرار والمحسنون والمسيئون. ومن ثم فالكتاب هو حياة مصغرة ، هو الميدان الوسيع في صفحات. وهذه الحياة الممثلة المصوّرة بطريقة خرافية ، تجري موزونة بميزان الحكمة، وشرع الطبيعة المستقيمة ، وحكم العقل

الذي يميز بين الخير والشر، وبين الاستقامة والاعوجاج ، ويَسُنّ الدساتير في هدوء علمي، وفي صرامة القضاء المسيطر على كل موجود "[1].

فالكتاب إذن مبني على المثل الخرافي، وهو مصدر يبعض أبواب تنطوي على مقدمات عامة في أصل وضع الكتاب وشرح أحوال برزويه الطبيب وما الى ذلك مما له علاقة بترجمة كلية ودمنة وموضوعه . وهو يسير على طريقة أساسها السؤال والجواب . أما السؤال فمن ملك هندي اسمه دبشليم لا يُعرف زمن وجوده ، وأما الجواب فمن فيلسوف حكيم اسمه بيدبا . أما دبشليم فرجل متعطش الى معرفة الحكمة وسياسة البشر، وهو رمز لكل ملك في كل مكان وزمان ، وهو يوجه الأسئلة عن طريق الاستجواب والاستعلام في كل ما يريد المؤلف أن يبسط البحث فيه . وأما بيدبا فرجل الاطلاع الواسع الهادئ الذي لا يخشى سلطاناً ولا يعرف المحاباة ، رجل الحقيقة التي يعرفها ويريد نشرها في لين وسياسة ؛ وهو يُجيب أبداً في رصانة وبعد نظر ومعرفة عميقة لطبائع الناس وطباع الحيوانات، ويجعل جوابه مثلاً يُفضّله في باب كامل من أبواب الكتاب ، ثم يُدخل في هذا المثل الأكبر أمثالاً صغرى يستشهد بها أبطال القصص على صدق ما يُقدِّمون من آراء ؛ وهكذا تأتي الأمثال مركبة تركيباً وثيقاً متداخلة تداخلاً يُجبر القارئ على تتبع الباب من أوله إلى آخره بحيث لا تفوته حكمة . وقد تتبع بيدبا هذه الطريق تمشياً على عادات الهنود خصوصاً والشرقيين عموماً ، ورآها الطريقة المثلى التي تصل الى غايتها في سياسة ولين وتفكيه، والتي لا تجرح العنيد إذا قبحت له عناده ، ولا تسوء الظالم إذا كشفت له عن سوء ظلمه قال ابن المقفع : «إذا جُعِلَ الكلام مثلاً كان ذلك أوضح للمنطق، وأبين في المعنى، وأنق للسمع، وأوسع لشعوب الحديث"[2].

ويواصل حنا الفاخوري حديثه عن أبواب الكتاب فيقول:" وهكذا كان كتاب كليلة ودمنة أبواباً أبواباً ، وفي كلّ باب أمثال ضمن أمثال . وهكذا كان كل باب يبتدئ بسؤال من دبشليم ملك الهند يتبعه جواب بيدبا الفيلسوف وهكذا كان في كل باب موضوع مطروح للبحث، منظور إليه من مختلف نواحيه عن طريق التمثيل ، يُبين حسناته وسيّئاته شخوص حيوانية المظهر بشرية الحقيقة ، يُحقق بعضها حكمة الموضوع فيُحسينون ويُكافأون، ويتهاون بعضها الآخر في التحقيق فيسيئون وينالون جزاء أفعالهم. فباب الأسد والثور يُمثل السلطة العليا، ويصور الحياة في البلاط وما يضطرب فيها من مكايد وسعايات ، ثم يُصوّر الملوك في سياستهم الداخلية وما يعتورها من نقص في اختيار الأعوان وفي توزيع الأعمال وتصديق الأقوال وما الى ذلك مما يقود المُلك الى الانهيار والبلاد الى الهلاك والدمار؛ وهو يُعالج كل داء بأقوال الحكماء كما يعالج بالتمثيل وتقديم الحجج والشواهد. وباب الحمامة المطوقة يُعالج قضية الصداقة ويبرهن أنها ممكنة بين المتباعدين في الطبيعة كالجرذ والحمامة بشرط أن يكون هنالك إخلاص وتضحية. وهكذا سائر الأبواب"[3].

---

[1]- حنا الفاخوري: الجامع في تاريخ الأدب العربي القديم، ط1، دار الجيل، بيروت، لبنان، 1986 ، ص 536- 537.

[2]- حنا الفاخوري: الجامع في تاريخ الأدب العربي القديم، ط1، دار الجيل، بيروت، لبنان، 1986 ، ص 536- 537.

[3]- حنا الفاخوري: الجامع في تاريخ الأدب العربي القديم، ط1، دار الجيل، بيروت، لبنان، 1986 ، ص 536- 537.

مضمون كتاب كليلة ودمنة:

يشتمل كتاب كليلة ودمنة على مجموعة من المضامين، هي: [1]

1 – أدب الملوك:

يقول حنا الفاخوري: "لا يخفى أن النظام الملوكي كان شائعاً في العصور القديمة، وأن الملك كان محور البلاد وقاعدة الأمور، وبيده السلطة التشريعية ، والسلطة القضائية ، والسلطة التنفيذية. وكان صلاح العباد بصلاح الملك؛ ولهذا اهتمت الفلسفات القديمة ولا سيما الشرقية منها ، لتوجيه الناس في اختياره ، كما اهتمت لتوجيه الملك توجيهاً يضمن سلامة البلاد، وهناءة العباد ، ولا عجب من ثم في أن نرى كتاب كليلة ودمنة – وهو خلاصة حكمة المشرق – يخص الملوك بقسم وافر من تعاليمه .

ورأس صفات الملك أن يكون حسن السيرة، ولكي يكون حسن السيرة عليه أن يملك نفسه أولاً ، ومتى ملك نفسه استطاع أن يملك العالم . ولكي يملك نفسه عليه أن يعرفها حق المعرفة ، ومن ثم فالعلم هو الأساس ، والعلم من عمل العقل ، والعقل أشرف ما في الانسان. ولهذا ترى في الكتاب محلاً رفيعاً للعقل، بل ترى كل شيء قائماً على النزعة العقلية. جاء في كليلة ودمنة : « لا يفرح عاقل بكثرة ماله ، ولا يحزن لقلته ، ولكن الذي ينبغي أن يفرح به عقله وما قدم من صالح عمله» فعلى الملك أن يكون العالم بالأمور وفرص الأعمال، ومواضع الشدّة واللين، والغضب والرضى" ، والعجلة والأناة ، والناظر في يومه وغده وعواقب أعماله) . وهكذا يستطيع أن يكون حسن السيرة وحسن السياسة، فلا تكون سيرته سيرة بطر وأشر وفخر وخيلاء وعُجب وضعف رأي) [2]

ومتى ملك العاهل نفسه كان ذا عهد ووفاء . « تبحاً للملوك الذين لا عهد لهم ولا وفاء ، وويل لمن ابتلي بصحبتهم، فإنهم لا حميم لهم ولا حريم، ولا يحبون أحداً ولا يكرم عليهم ، إلا أن يطمعوا عنده في غناء فيقربوه عند ذلك ويكرموه . فإذا قضوا منه فلا ودّ ولا حفاظ ، ولا الإحسان يجزون به ، ولا الذنب يعفون عنه ، الذين إنما أمرهم الفخر والرثاء والسمعة ، الذين كلّ عظيم من الذنوب يركبونه ، وهو عندهم صغير حقير هين». ومتى ملك العاهل نفسه كان حليماً ،عاقلاً، متأنياً عند الغضب" ، وابتعد عن التجبر والظلم وانصف بجميع الصفات التي تجعله أهلاً للحكم ، وتجعل الحكم في يده طريقاً الى إسعاد الرعية. وهكذا يمكنه أن يسوس الناس ويُعنى بشؤونهم. وعليه عند ذلك أن يجعل عنايته شطرين : شطراً للداخل، وشطراً للخارج. فتكون سياسته الداخلية سياسة سهَر وفطنة ، وذلك في اختيار الأعوان، وتحصين المملكة بالجند، وتحكيم الاستقامة، ورفع لواء العدل وما الى ذلك . «إن أعظم الأشياء ضرراً على الناس عامَّةٌ ، وعلى الوُلاةِ خاصة، أمران : أن يُحرموا صالح الأعوان والوزراء والإخوان ، وأن يكون وزراؤهم وإخوانهم غير ذوي مروءة ولا غناء » . ومن واجبات الملك أن لا يُكره أحداً على عمل لأنّ المُكْرَه لا يستطيع المبالغة في العمل ، وأن يُراعي في إسناد الأعمال الكفاية والميل في من يُسندها إليهم، وأن يتفقد العُمَّال

---

[1]- حنا الفاخوري: الجامع في تاريخ الأدب العربي القديم، ص 536- 537.

[2]- حنا الفاخوري: الجامع في تاريخ الأدب العربي القديم، ص 536- 537.

والأعمال بنفسه حتى لا يكون ألعوبة في أيدي الوشاة والمفسدين، وأن يستشير لأن الملك شورى في نظر ابن المقفع : المَلِك المشاوِرُ المُؤامِر يُصيب في مُؤامرتِهِ ذوي العقول من نصحائه ، من الظفر، ما لا يُصيبه بالجنود والزحف وكثرة العدد. فالملك الحازم يزداد بالمؤامرة والمشاورة ورأي الوزراء الحزمة ، كما يزداد البحر بمواده من الأنهار . » . ومن واجبات الملك في سياسته الداخلية أن يُحصن أسراره : « يصيب الملوك الظفر بالحزم والحزم بأصالة الرأي والرأي بتحصين الأسرار [1]

وأما السياسة الخارجيّة فهي سياسة اللين والسلام : « ذو العقل يجعل القتال آخر حيله ، ويبدأ بما استطاع من رفي أو تمحل ولا يعجل) و « إذا كان وزير السلطان يأمره بالمحاربة في ما يقدر على بُغيته فيه بالمسالمة فهو أشدّ من عدوّه له ضرراً». أما السفراء بين الدول فيجب اختيارهم بكل اعتناء، وعلى الرسول أن يكون ذا لين ومؤاتاة فإنّ الرسول يلين القلب إذا رفق، ويُخشن الصدر إذا خرق». [2]

ويقول حنا الفاخوري: "وإنه ليضيق بنا المجال لو أردنا تتبع كتاب كليلة ودمنة » في موضوع السلطان الذي يستغرق القسم الأكبر من فصوله. وفي ما ذكرنا إشارة الى ما لم نذكر. وإن من يقرأ الكتاب ويتلمس فيه روح ابن المقفع يخرج بفكرة واضحة عن نزعة التشيع المتغلغلة فيه، وعن الصلة الوثيقة ما بين العقل الهندي الإغريقي والعقل العربي المتشيع" [3]

2- أدب الرعيَّة:

يقول حنا الفاخوري: " تواجه الرعيّة في الملوك إحدى حالتين: إما حالة عدل واستقامة ، وإما حالة ظلم واستبداد . فعليها في الحالة الأولى أن تعيش في طاعة وإخلاص ، وعليها في الثانية أن تضم صفوفها ولا تتخاذل حتى تردّ الملك عن غيه أو تحطم نير عبوديته وعليها في كل حال أن تعتصم بالصبر والأناة ، وأن لا تطمع في صحبة الملوك ، والتقرب منهم ، لأنّ في ذلك تعباً وعبئاً ثقيلاً " [4]

3- أدب النفس:

يقول حنا الفاخوري: " على الإنسان العاقل في هذه الحياة أن يُقدِّم العقل في كل الأمور ، فهو فوق المال والقوة ؛ وعليه أن يضبط نفسه ولا يؤخّر عمله ، ويكون صادقاً في قوله وفي عمله ، ويُصانع ويعتمد الرفق والملاينة في أحوال كثيرة ، ويلزم جانب الحذر ولا يسترسل إلى النساء لأنَّ المرأة في نظر واضع

[1]- حنا الفاخوري: الجامع في تاريخ الأدب العربي القديم، ص 536- 537.

[2]- حنا الفاخوري: الجامع في تاريخ الأدب العربي القديم، ص 536- 537.

[3]- حنا الفاخوري: الجامع في تاريخ الأدب العربي القديم، ص 536- 537.

[4]- حنا الفاخوري: الجامع في تاريخ الأدب العربي القديم، ص 536- 537.

الكتاب ، لا تحفظ سراً ولا وداً ، ولا يحقد لأن من كان له عقل كان على إمانَةِ الحقد أحرص منه على تربيته"[1].

4- أدب الصداقة:

يقول حنا الفاخوري: " الصداقة من ضرورات الحياة، وهي نوعان: صداقة قائمة على تبادل ذاتِ النفس، وهي المصافاة، وصداقة قائمة على تبادل ذات اليد أي على المساعدة ، وهذه دون الأولى قيمة . وعلى العاقل أن يُحسن اختيار الصديق المُخلِص الذي لا يبخل بالمشورة ، وليعلم أن رأس المودّة الاسترسال». وليعلم أيضاً أن ثلاثة أشياء تزداد بها الصلة بين الأصدقاء: المُؤاكلة، والزيارة في البيت، ومعرفة الأهل والحشم ، وأن ثلاثة لا يلبث ودّهم أن يتصرم : الخليل الذي لا يلاقي خليله ولا يكاتبه ولا يراسله "[2].

قيمة كليلة ودمنة من الناحية الفكرية:

يقول حنا الفاخوري: " لكليلة ودمنة قيمة كبيرة في عالم الفكر والتاريخ والأدب. فالكتاب كنز من كنوز الحكمة البشرية، وفيه فلسفة اجتماعية أخلاقية واسعة النطاق، وفيه دروس تشريعية ذات قيمة ، وفيه نظرات ماورائية جليلة وإن موجزة ، وفيه على كل حال عِلم وعمل، وعلم موجه الى العمل ومن ثم يتضح لنا أن فلسفة الكتاب هي فلسفة الحياة العملية الشريفة ، هي فلسفة موضوعية مثالية ، ذات نزعة تشاؤمية يحوم عليها قَدَرٌ غلاب لا يُقهر . وفلسفة كليلة ودمنة موسومة بسمة المذهب العقليّ الذي يجعل العقل مديراً وموجهاً لكل حركة . وهكذا كانت تلك الفلسفة مزيجاً من أفلاطونية وأرسطو طالية وهندية شرقية. ونحن نلمس في الكتاب انفلاتات صوفية زهدية وهي من نزعات الفلسفة الهندية. أما النزعة الأفلاطونية في كليلة ودمنة فظاهرة في المثالية، وظاهرة خصوصاً في التنظيم الاجتماعي حيث يسود العدل، وحيث يسوس الناس جماعة من أهل العقل والحكمة والمعرفة . والفضيلة عند أفلاطون وفي كليلة ودمنة ذات صلة وثيقة بالعلم. النزعة الأرسطوطالية فظاهرة في إخضاع كلّ شيء للعقل، وفي تسيير الكلام على سنة التقسيم المنطقي؛ والعقل عند أرسطو أشرف ما في الإنسان، والميزة الخاصة التي تجعل الإنسان إنساناً وترفعه فوق جميع الموجودات الحسية، وهو من ثم قائد وجميع أعمال الجسد خاضعة له . وأما النزعة الهندية الشرقية فظاهرة في التشاؤم الذي يحوم فوق كلّ كلام. وذلك أن الحياة، في نظر الفلسفة الهندية، عبودية، وكلّ شيء في هذا الوجود ترهات وأباطيل، ومن ثم دعت الفلسفة الهندية الى الصدوف خيرات العالم وراحت تبحث عن طريق الإنقاذ والخلاص، فقالت بالسيطرة على النفس التي تنتهي بالسيطرة على العالم، ودعت من ثمَّ إلى التقشف والزهد، بل جعلت التقشف من مبادئها الأولى ، ورمت به الى السيطرة على مجموع مظاهر النشاط الحيوي كما رمت الى إطلاق العقل العارف الذي

---

[1]- حنا الفاخوري: الجامع في تاريخ الأدب العربي القديم، ص 536- 537.

[2]- حنا الفاخوري: الجامع في تاريخ الأدب العربي القديم، ص 536- 537.

يتغلب على كثافة المادة بالتقشف فيمتد إدراكه الى خارج الجسم بعيداً في المسافة وبعيداً في الزمن الحاضر والمستقبل. "[1].

ويقول حنا الفاخوري: " وفي هذه النزعة الهندية أثر صينى أيضاً، وقد أثبتت الكتب الصينية بطريقة شائقة . صلة خالصا العلاقة الوثيقة بين معرفة أنفسنا ومعرفة الأشياء ، فقالت – وكم في هذا القول من مع ما نعرفه من كليلة ودمنة – : «كان الملوك القدماء إذا أرادوا إظهار فضائلهم الباهرة تحت السماء حكموا أولاً بلادهم وساسوها ، وإذا أرادوا حكم بلادهم اهتموا أولاً بمنازلهم ؛ وإذا أرادوا الاهتمام بمنازلهم بدأوا بتنظيم شؤون أنفسهم ، وإذا أرادوا تنظيم شؤون أنفسهم بدأوا بتقويم قلوبهم؛ وإذا أرادوا تقويم قلوبهم بدأوا يجعل تفكيرهم خالصاً. وإذا أرادوا جعل تفكيرهم خالصاً بدأوا برفع مستوى معلوماتهم الى القمة ورفع هذا المستوى الى القمة هو إدراك الأشياء؛ وعندما أدركوا الأشياء بلغت معلوماتهم القمة. ولما بلغت معارفهم القمة أصبح تفكيرهم خالصاً، ولما أصبح تفكيرهم استقامت قلوبهم. ولما استقامت قلوبهم استطاعوا أن يُنظموا أنفسهم ، ولما أصبحوا هم أنفسهم مطابقين للنظام استطاعوا تدبير شؤون منازلهم؛ ولما أحسنوا تدبير منازلهم تمكنوا من حكم بلادهم ، ولما استقام الحكم في بلادهم وجدوا ما تحت السماء في سلام». والملك في الفلسفة الصينية هو نقطة الدائرة في الأمة ، ونقطة الارتكاز في قيام النظام فإذا كان كاملاً سارت الأمور على هيئتها وساد السلام ؛ فعليه إذن أن يعرف بني الإنسان ليعرف نفسه ويقومها ؛ ومن ثمّ نرى في هذه الفلسفة القديمة أن قاعدة الإنسانية هي الإنسانية نفسها ، وأن الرجل الفاضل هو قانون الأخلاق . ومن ثم نرى أن في الفلسفة الشرقية القديمة محلاً واسعاً للملك ، وأن فيها اهتماماً خاصاً به لأنه قاعدة النظام وركن المجتمع ، وهكذا كان كتاب كليلة ودمنة صورة صادقة لتلك النزعة الشرقية وتلك الفلسفة القديمة "[2].

"

القرد والغيلم أنموذجا:

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف: قد سمعت هذا المثل، اضرب لي مثل الرجل الذي يطلب الحاجة فإذا ظفر بها أضعها قال الفيلسوف: إن طلب الحاجة أهون من الاحتفاظ بها ومن ظفر بحاجة ثم لم يحسن القيام بها أصابه ما أصاب الغيلم. قال الملك: وكيف ذلك؟ قال بيدبا: زعموا أن قرداً يقال له ماهر كان ملك القردة وكان قد كبر وهرم فوثب عليه قرد شاب من بيت المملكة فتغلب عليه، وأخذ مكانه

[1]- حنا الفاخوري: الجامع في تاريخ الأدب العربي القديم، ص 543.

[2]- حنا الفاخوري: الجامع في تاريخ الأدب العربي القديم، ص 543.

فخرج هارباً على وجهه حتى انتهى إلى الساحل فوجد شجرة من شجر التين فارتقى إليها وجعلها مقامه فبينما هو ذات يوم يأكل من ذلك التين، إذا سقطت من يده تينة في الماء فسمع لها صوتاً وإيقاعاً فجعل يأكل ويرمي في الماء، فأطربه ذلك: فأكثر من طرح التين في الماء وثم غيلم كلما وقعت تينة أكلها. فما كثر ذلك ظن أن القرد إنما يفعل ذلك لأجله فرغب في مصادقته، وأنس إليه وكلمه، وألف كل واحد منهما صاحبه. وطالت غيبة الغيلم عن زوجته: فجزعت عليه وشكت ذلك إلى جارة لها وقالت: قد خفت أن يكون قد عرض له عارض سوء فاغتاله. فقالت لها: إن زوجك بالساحل قد ألف قرد وألفه القرد: فهو مؤاكله ومشاربه، وهو الذي قطعه عنك، ولا يقدر أن يقيم عندك حتى تحتالي لهلاك القرد. قالت وكيف أصنع؟ قالت لها جارتها: إذا وصل إليك فتمارضي، فإذا سألك عن حالك فقولي: إن الحكماء وصفوا لي قلب قرد.

ثم انطلق إلى ساحل البحر: فقال له القرد يا أخي، ما حبسك عني؟ قال الغيلم: ما حبسني إلا حيائي: فلم أعرف كيف أجازيك على إحسانك إلي؟ وأريد أن تتم إحسانك إلي بزيارتك أي في منزلي فإن ساكن في جزيرة طيبة الفاكهة. فركب ظهر الغيلم، فسبح به حتى إذا سبح به عرض له قبح ما أضمر في نفسه من الغدر، فنكس رأسه، فقال له القرد: مالي أراك مهتماً؟ قال الغيلم: إنما همي لأني ذكرت أن زوجتي شديدة المرض وذلك بمنعي من كثير مما أريد أن أبلغه من حرصك على كرامتك وملاطفتك. قال القرد: إن الذي أعرف من حرصك على كرامتي يكفيك مؤونة التكليف. قال الغيلم: أجل ومضى بالقرد ساعةً، ثم توقف به ثانية: فساء ظن القرد وقال في نفسه: ما احتباس الغيلم وإبطاؤه إلا لأمر ولست آمناً أن يكون قلبه قد تغير لي وحال عن مودتي، فأراد بي سوءاً: فإنه لا شيء أخف وأسرع تقلباً من القلب وقد يقال: ينبغي للعاقل ألا يغفل عن التماس ما نفس أهله وولده وإخوانه وصديقه عند كل أمر، وفي كل لحظة وكلمة وعند القيام والقعود، وعلى كل حال فإن ذلك كله يشهد على ما في القلوب وقد قالت العلماء إذا دخل قلب الصديق من صديقه ريبة فليأخذ بالحزم في الحفظ منه وليتفقد ذلك في لحظاته وحالاته فإن كان ما يظن حقاً ظفر بالسلامة، وإن كان باطلاً ظفر بالحزم، ولم يضره ذلك ثم قال للغيلم: ما الذي يحبسك؟ ومالي أراك مهتماً، كأنك تحدث نفسك مرة أخرى؟ قال: يهمني أنك تأتي منزلي فلا تجد أمري كما أحب: لأن زوجتي مريضة قال القرد: لا تهتم فإن الهم لا يغني عنك شيئاً ولكن التمس ما يصلح زوجتك من الأدوية والأغذية: فإنه يقال ليبذل ذو المال ماله في أربعة مواضع: في الصدقة وفي الحاجة وعلى البنين وعلى الأزواج. قال الغيلم: صدقت. وقد قال الأطباء إنه لا دواء لها إلا قلب قرد فقال القرد وأسفاه لقد أدركني الحرص وأني قد احتجت الآن إلى عقلي في التماس المخرج مما وقعت فيه. ثم قال الغيلم: وما منعك أن تعلمني عند منزلي حتى كنت أحمل قلبي معي؟ فهذه سنة فينا معاشر القردة إذا خرج أحد لزيارة صديق خلّف قلبه عند أهله أوفي موضعه، للنظر إذا نظرنا إلى حرم المزور وليس قلوبنا معنا قال الغيلم: وأين قلبك الآن؟ قال: خلّفته في الشجرة فإن شئت فارجع بي إلى الشجرة حتى آتيك به ففرح الغيلم بذلك وقال: لقد وافقني صاحبي بدون أن أغدر به. ثم رجع بالقرد إلى مكانه فلما أبطأ على

الغيلم، ناداه: يا خليلي احمل قلبك وانزل فقد حبستني فقال القرد: هيهات أتظن أنّي كالحمار الذي زعم ابن آوى أنه لم يكن له قلب ولا أذنان قال الغيلم: وكيف ذلك؟"[1].

تحليل النص:

تتسم حكاية القرد والغيلم بالخصائص الفنية التي تنطبق على سائر حكايات كليلة ودمنة، وهي التي يجمعها أسلوب ابن المقفع المعروف بـ السهل الممتنع.

1- يبدأ الباب بعبارة تتكرر في معظم الأبواب، هي: قد سمعت هذا المثل فاضرب لي مَثَلَ الذي

2- تتألف القصة (الحكاية) من ثلاثة أجزاء متلاحقة يتولد واحدها من سابقه:

أ- مقدمة تتضمن تمهيداً موجزاً، مع تحديد لطرفي الصراع، وهما القرد والغيلم.

ب- عرض تتسلسل فيه الأحداث، وتؤدي الشخصيات أدوارها. وفي هذا الجزء بيان لما طلبه الملك من الفيلسوف من خلال حشد الأحداث وتحرك الشخصيات على المسرح.

ج - خاتمة القصة، وهي هنا مزدوجة واحدة تتضمن الحل، وهو عودة القرد سالماً وتخلصه من الورطة التي أوقعه فيها صديقه الغيلم. والثانية تتضمن المثل الذي يحمل وعظاً مباشراً، وكان هذا الوعظ من قبل يجري في سياق الأحداث، إذ يقول في ختام الباب:

فهذا مثل الرجل الذي يطلب الحاجة فإذا ظفر بها أضاعها.

3- نجد في هذا الباب استطراداً وخروجاً من حكاية إلى أخرى ففي خاتمة القصة يطلب الغيلم من صديقه أن يحمل قلبه وينزل عن الشجرة، فيقول القرد هيهات!

أتظن أني كالحمار الذي زعم ابن آوى أنه لم يكن له قلب ولا أذنان؟. وهنا تبدأ حكاية جديدة. وقد نجد عودة إلى الحكاية الأولى في حكايات أخرى.

4- تتداخل شخصيتا الراوي والمستمع بيدبا و دبشليم) من جهة، والشخصيات التي ترد في المثل المضروب وهي القرد، والغيلم، والزوجة، والجارة.

5- يتردّد منشئ الحكاية بين الإشارة إلى أن المثل المضروب قصة متخيلة أو من وحي الواقع، إذ يقول : زعموا أن قرداً يقال له ماهر .

6- يُعد الحوار عنصراً بارزاً في القصة، وهو حيوي فيها وقد دار بين الشخصيات الرئيسة القرد والغيلم والشخصيات الفرعية الزوجة والجارة وقد أضفى هذا الحوار طابعاً مسرحياً على القصة .

الشخصيات الرمزية واضحة في قصة القرد والغيلم

أولا- القرد: كل حيوان يرمز إلى شخصية بشرية تعيش في كل زمان وفي كل مكان إذ يرمز القرد إلى فئة من الناس ممن يخلصون في صادق ،صداقتهم، ويثقون بأصدقائهم في الغيلم وأنس إليه وكلمه، ثم لبى طلبه حين دعاه إلى منزله، وكشف غدر صاحبه حين هم أن يأخذ قلبه علاجاً لزوجته. والتمس المخرج من هذه الورطة بذكائه، إذ أعلم الغيلم أنه ترك قلبه عند أهله، وأقنعه بأن يرجع به إليهم.

[1]- عبد الله بن المقفع: كليلة ودمنة ، ص .

يشير تصرف القرد إلى الأمور التالية:

1- أن الحرص والشرَه أوقعاه في ورطة كاد يفقد بها حياته .

2- أن العقل له فضيلة إذا استخدمه صاحبه في سبيل الخير .

3- أن أصحاب الفكر والذكاء هم القادرون على التخلص من أساليب الحيلة والغدر، ويقابلون المكر بمكر أشد وأقوى.

ثانيا- الغيلم: إذا كان القرد يمثل العقل الراشد والصداقة المتينة فإن الغيلم يمثل الغباء المطلق إذ طلب الحاجة قلب القرد وظفر بها ثم أضاعها. وكذلك يمثل الغدر حين دعا صديقه القرد لينتزع منه قلبه ومن ثم جانب آخر، وقف له القرد، وأفسد عليه خطته ،ومصلحته، وخسر بذلك كل شيء.

وغاية الكاتب أن يبعث إلينا رسالة تنم عن الأمور التالية:

1- أن العقل ليس له فضيلة إذا استخدمه صاحبه في سبيل الشر.

2- أن أصحاب المكر والحيلة لا ينجحون دائماً، إذ يُقابلون بمن هو

3- أن العاقل يحاسب نفسه ويراجعها.

ثالثا- زوجة الغيلم:

أشد منهم مكراً. وهي ترمز إلى فئة من الناس تبدو قلقة مهمومة عاجزة عن الحيلة، ولهذا تلجأ إلى جارتها التي تُسدي إليها النصح والإرشاد. ويشير تصرف الزوجة إلى الأمور التالية:

1- أن العاطفة وهي هنا الغيرة على الزوج، تدفع الزوجة إلى سؤال الجارة.

2- أن الزوجة تبدو في الظاهر مسكينة مريضة، وهي تدعي ذلك لتكسب عطف الزوج.

3- أن الزوجة في سلوكها ساقت الأذية إلى زوجها الذي خسر صديقه ولكنها نجحت في التفريق بينهما، فأصبح قريباً منها، وهنا تسجل انتصاراً على هذا الزوج.

4- الجارة إذا كانت الزوجة قد مثلت الغريزة المطلقة، وهي الخوف على مصير الزوج فإن الجارة تمثل هدي العقل ونوره، إذ تكشف للزوجة عن المكان الذي يقيم فيه الزوج، وتسدي لها النصيحة لقد أدركت أن القرد قد لزم الغيلم، وأن الجارة قليلة الحيلة، ومن ثم طلبت منها أن تحتال لهلاك القرد.

الأحـــداث:

تتصف أحداث هذه القصة الأسطورية بالنزعة التصاعدية والنمو؛ فالحادثة اللاحقة تدفع بالأزمة إلى عقدتها، وهي هروب القرد إلى الساحل ولجوؤه إلى الغيلم، حيث تصادقا وألف كل واحد منهما صاحبه. وهي حسنة التوقيع، ترد في اللحظة المناسبة؛ فالكاتب لم يدع الزوجة تلتقي بالجارة إلا بعد أن طالت غيبة الغيلم. ولم يدع القرد يلتقي الزوجة إلا بعد أن حل بها الجزع وادعت المرض، ولم يجعله ينطلق ثانية إلى الساحل إلا ليحتال عليه ويأخذ قلبه الذي وصفه الأطباء دواء لزوجته.

والكاتب يتوسل الحادثة من خلال الحوار الذي ألم به في القصة، ومن خلال الصراع الداخلي:

1- حتى إذا سبح به عرض له قبح ما اضمر في نفسه من الغدر، فنكس رأسه.

2- ما احتباس الغيلم وإبطاؤه إلا لأمر ولست آمناً أن يكون قلبه قد تغير لي، وحال عن مودتي.

3- وأسفاه لقد أدركني الحرص والشره على كبر سني، حتى وقعت في شر ورطة.

طبائع الأسلوب: أسلوب ابن المقفع هو السهل الممتنع ، يقوم على نقل المعاني الجديدة في أسلوب أدبي مشرق بعيد عن التصنع خال من الغريب. وقد اختار الكاتب الألفاظ الدقيقة الموحية كاستعماله الفعل (وثب) لأن القوي يهاجم الضعيف، (نكس) لأن المخطئ يحس بالذل والهوان؛ (كما رضي) تفيد الإدعاء والتظاهر.

وتبدو الفاظه مقننة تحمل منها معنى خاصا بها من ذلك قوله: فرغب في مصادقته، وأنس إليه، وكلَّمه، وألف كل واحد منهما صاحبه وقد يظن القارئ أن فيها ترادفاً وتكراراً، إلا أن لفظة أنس وإن ارتبطت في معناها بلفظة ألف، فهي تتميّز من دونها بإيحاء يفيد الأمن والاطمئنان.

وجاءت ألفاظه ومعانيه ،متوازنة ،متألقة يأخذ بعضها برقاب بعض دون أن تتهالك وتعيا مثل قوله فوجد شجرة من شجر التين، فارتقى إليها وجعلها مقامه ذلك التين، إذ سقطت من يده تينة في الماء، فسمع لها فبينما هو ذات يوم يأكل من صوتاً وإيقاعاً، فجعل يأكل ويرمي في الماء، فأطربه ذلك، فأكثر من طرح التين في الماء، وثم غيلم، كلما وقعت تينة أكلها.

فهذا المقطع يمثل جملة واحدة متوالدة بعضها من بعض بجمل مجزوءة تعبر كل

منها عن حادثة جديدة وفق السياق التالي: (وجد شجرة- ارتقى إليها- فبينما هو يأكل - سقطت من يده تينة فجعل يأكل ويرمي- فأطربه ذلك- فأكثر من طرح التين).

سمات أسلوب ابن المقفع:

ومن ثم فقد اتسم أسلوبه بالسمات التالية:

1- جاءت عباراته واضحة سهلة المأخذ، تخلو من السجع، ونجد فيها بعض المحسنات؛ كالطباق مثل : ومضى بالقرد ساعة ثم توقف وعند القيام والقعود والمقابلة مثل: يعيش القانع الراضي مستريحاً مطمئناً، وذو الحرص والشره يعيش ما عاش في تعب ونصب.

2- وإذا كرّر الكاتب صيغاً تعبيرية معينة، فرغبة في تأكيد مضمونها، مثل: إن الحكماء وصفوا لي قلب قرد وقد وصف لها الأطباء قلب قرد، وقد قالت الأطباء: إنه لا دواء لها إلا قلب قرد.

3 - أجاد الكاتب استعمال حروف العطف في تسلسل الأحداث وتتابعها؛ فقد استعمل حرف العطف (الفاء) لإفادة الترتيب والتعقيب من ذلك قوله:

فوثب عليه قرد شاب فتغلب عليه فخرج هاربا على و وجهه واستعمل حرف العطف (ثم) لإفادة طول المدة التراخي) من ذلك قوله:

أ- ثم إنّ الغيلم انطلق بعد مدة إلى منزله.

ب- ثم انطلق إلى ساحل البحر .

وتفنن كذلك في استعمال حروف الجر والأسماء الموصولة.

حكمة النص:

تتضمن هذه القصة مضامين إنسانية متعددة نستشفها من الحوار والسلوك، ومنها:

1 – الحياة تقوم على الصراع بين القديم والجديد (القرد الهرم والقرد الشاب، وبين الخير والشر القرد والغيلم).

2– لا غنى للجار عن الجار الزوجة والجارة).

3– الطمع ضر وما نفع كما جاء في الأمثال والحرص والشره أوقعا القرد في شر ورطة.

4– أن أصحاب المكر والحيلة ليسوا هم الناجحين ومهما يطل أمد الخداع فلا بد أن ينتهي ويتبدد.